فن رسائل الحب في الادب العربي

بحث ادبي تاريخي من مقدمة « اوراق الورد »

لمصطفى صادق الرافعي

... وأما بعدُ فاننا لا نعرف في تاريخ الادب العربيّ كله رسالةً كتبت من هذا الطّراز على كثرة كتّاب العربية وكُتُبها وعلى ما أبدعوا في فنون الترسّل وعلى ان هذه العربية من أوسع لغات الدنيا فيما خَصّت بهِ المرأة وما اوقعتهُ على صفاتها وما افاضتهُ على العاطفة اليها وما حَفَلَتْ بهِ من الفاظ معانيها حتى لو امكن ان ترسل لغات الامم الفاظها تَستبِق في المعاني النسائية لما كان السبق الاّ للالفاظ العربية ولا أوفى على الغاية الا المعجم العربي وحده

وفي تاريخ ادبنا ممن اشتهروا بالعشق من نُكاثِرُ بهم في هـذا الباب ، ومن اشهرهم مجنونُ بني عامر[1] وصاحبتهُ ليلى ، وقيسُ ابن ذَرِيح ولُبنى، وتَوبةُ وليلى الاخيلية ، وكُثَيّر وعَزّة ، وجميلٌ وبُثَينة ، والمؤمل والذّلفاء ، ومُرَقّش وأسماء ، وعُروة وعَفراء ، وعمرو بن عجلان وهند ، والمهذب ولذة ، وذو الرُّمة وميّة ، وقابوس ومنيّة، والمخبّل السعدي والميلاء ، ووضّاح اليمن وام البنين ، وبِشر وهند، وابن ابي ربيعة والثريا (وثريّات كثيرة . . .) والاحوص وسلاّمه، ونُصَيب وزينب، وأبو العتاهية وعتبة، وابن الاحنف وفوز، وأبو الشيص وأمامة، وابن زيدون وولادة، وكثيرون وكثيرات

واشتهر من شعراء الغزَل خاصة كثيرون منهم ابن اذينة وابن الدُّمَينَة وابن الطثرية وابن ميّادة وابن مطير وابن ابي ربيعة وابن ذريح والعَرْجي والمجنون وقيس بن الحطيم وسويد بن أبي كاهل وكثيّر الذي قالوا فيه لو رقي المجنون بشعره لافاق، وجميل ونصيب ووضاح وعباس بن الاحنف والخليع والوأواء وابن الخياط وابن زيدون ومن لا يحصى في المشرق والمغرب والاندلس[2]

واشتهر من الشاعرات المتظرفات الجميلات الموقوفات على الحب: الذلفاء وعنان جارية الناطفي ويقولون انها أشعر الناس وجنان صاحبة أبي نواس وفضل الشاعرة جارية الخليفة

(١) يظنه بعضهم شخصا خرافيا ولسنا من هذا الرأي وانما حملوا عليه في الرواية

(٢) استوفينا هذا الباب في الجزء الثالث من كتابنا « تاريخ آداب العرب » وانما نلم هنا ببعض الاسماء ارسالا على طريق ما نحن فيه لا على طريق التاريخ

المتوكل وكانت افصح اهل زمانها وكانت تهاجي خنساء الشاعرة جارية هشام المكفوف وعشقت الكاتب البليغ سعيد بن حميد ، وللمتوكل بنان ومحبوبة أيضاً وهما شاعرتان . وفي الاندلس نزهون الغرناطية وولادة وحمدة الملقبة بخنساء المغرب وكثيرات غيرهن استوفينا أسماءهن في تاريخ آداب العرب

وحفل تاريخ الادب بالقيان الظريفات الغزلات ولا تكاد اسماؤهن تحصى وهنَّ سر الغزل الحي البديع الذي انفردت به تلك العصور ولم يظفر الادب العربي بمثله من بعدها الى اليوم (١)

وجاء في آدابنا العربية من المؤلفات المعجبة التي أفردت للحب ومعانيه واهله وأخبارهم ونوادرهم وأشعارهم كتب مجوَّدة منها كتاب الزُّهرة الذي الفهُ الامام محمد بن داود الظاهري فقيه اهل العراق (٢) وقد جعل كتابه في مائة باب وهو القائل : ما انفككتُ من هوًى منذ دخلت الكتّاب، ثم الظرف والظرفاء وكتب مؤلفه الكثيرة في هذه المعاني (٣) ثم مصارع العشاق الذي وضعهُ أبو بكر البغدادي السراج المتوفي سنة ٥٠٩ وجعله اثنين وعشرين جزءاً وهو اصل لكل ماوضع بعده من الكتب كاسواق العشاق وديوان الصبابة وتزيين الاسواق ومنازل الاحباب وغيرها، ومع كل مارأيت فقد انفرد الشعر وحده بالنسيب والغزل واوصاف الجمال وليس لنا كتاب واحد في رسائل الحب ولا نعرف احداً من البلغاء كتب فيها. ولعل هذا راجعٌ الى ان تلك الطريقة استقلَّ بها الشعر في الصدر الاول فقلّد الباقون واخذوا في مَدْرَجَتهم من بعد

وكان هذا الباب عندهم مما يرون للشعر به اختصاصاً فهو سبيله دون الكتابة والخطابة لمكان الوزن في الشعر، فتجيء الرسالة الغزلية لحناً غنائيّاً من طبيعتها، ثم لانهُ قد تقرر عندهم انهُ يحسن في الشعر من فنون الكذب والمبالغة ما لا يطرد في النثر حتى ان اكثر الرذائل كالهجاء ووصف الخمر والمجون كان ظرفُها الشعرَ وهي فيه سائغة وفي غيره منكرة ولا يأتي منها في المنثور إلا قليلاً

وقد نصُّوا على ان للشعر مواضع لا ينجع فيها غيره من الخطب والرسائل بل هو يفضلهما.

---

(١) واسماؤهن وحدها غزل ومن هذه الاسماء : حكم الهوى وقلوب وصدق ومهج وخشف وخنث وبدعة ومشتهى وكنوز ونشوان وترشف وملاعب الخ وكان فيهن اديبات محسنات ولهن بلاغة هي صورة اخرى من جمالهن كفرحة جارية بن الجهم الشاعر المشهور سألها ذات ليلة كم بيننا وبين الصبح فقالت (عناق مشتاق) وقال لها مرة نجعل مجلسنا الليلة في القمر فقالت ما اولعك بالجمع بين الضرائر

(٢) توفي سنة ٢٩٥ ومن كتابه جزء في دار الكتب المصرية وكان يمشق على الطريقة التي اشار اليها ابن سينا والتي هي حقيقة الحب ولا تنس انه كان فقيه اهل العراق

(٣) هو ابو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيي الوشاء من ادباء القرن الثالث وستأتي الاشارة اليه بعد وكتبه في هذه المعاني مسماة في الظرف والظرفاء

قال ابو هلال العسكري في كتاب الصناعتين وهو يعدُّ هذه المواضع: «ومن ذلك ان صاحب الرياسة والابهة لو خطب بذكر عشيق له وبأوصف وجده به وحنينه اليهِ وشهرته في حبه وبكاه من اجله لاستهجن منه ذلك وتنقص بهِ فيه، ولو قال في ذلك شعراً لكان حسناً »

وقد توفي العسكري سنة ٣٩٥ للهجرة وعلى كثرة ما حشد في كتابه من فنون النثر وطرائقهِ لم يأت برسالة واحدة بين حبيبين إلا ما اورده في باب مايحتاج الكاتب الى ارتسامه وامتثاله قال: وينبغي ان يكون الدعاء على حسب ماتوجبهُ الحال بينك وبين من تكتب اليهِ.. وقال كتب بعضهم الى حِبَّةٍ له: عصمنا الله واياك مما يكره. قال فكتبَتْ اليهِ ياغليظ الطبع لو استجيبت لك دعوتك لم نلتق ابداً ......

ولا ريب عندنا ان هذه الكتابة مصنوعة للتمثيل بها في هذا الموضع كالذي كانوا يصنعونه من الشعر اذا احتاجوا الى الشاهد والمثل على مابيناه في باب الرواية من تاريخ آداب العرب

ثم هم يخصون الشعر بالغزل والتشبيب والنسيب لان الشعر ايسر عملاً واخف مؤنةً في هذا الباب اذ يعين بقوافيه على الابداع في المعاني فان القافية كثيراً ماتخترع المعنى وتلهمه الشاعر، ثم الشعر يصحبه الوزن واللحن فيعين بنسقهِ ايضاً كما يعين بقوافيه، ثم تجيء الفاظه مقدودة مفصلة فتكون حيلة ثالثة، ثم هو يكتفي منه بالبيتين والابيات اليسيرة فيجيء في كل ذلك على اتمه واحسنه ويقوم به، بخلاف الكتابة فلا يجدي فيها السطران والاسطر القليلة في رسالة تصف الحب، وما ستر هناك يفضح هنا وما اعان في الشعر يخذل في النثر والشعر إجمال والكتابة تفصيل

وانت فاعمد الى بيتين من رائع الغزل كقول ابن الطثرية :

بنفسي مَن لو مَرّ بَردُ بنَانه ... على كَبِدي كانت شفاءً أناملهْ
ومن هابني في كل شيء وهِبْتُه ... فلا هو يُعطيني ولا أنا سائلهْ

فاجعل هذين البيتين رسالة الى حبيبة فانهما يجزئان ويؤديان الرسالة، وينقلان اليها عن نفسك معاني الاحتراق والعشق والصبابة، ويتكلمان عندها كثيراً ويعلقان بذهنها ويدوران في قلبها دورة الدم. ثم اعمد اليهما فاجعل المعنى المنظوم في سطرين وحاول منهما رسالة كتلك فان السطرين لا يتزحزحان ولا يمشيان الا كما يتوكأ الاعرج على اعرج مثله ....

وهذا الى ان الكتابة في معاني الحب لا تحتمل الصدور والفصول وصناعة الالفاظ والترادف بالكثير منها على القليل من المعاني، ويسمُج فيها خاصة ماتراه يحسن في غيرها من فنون الكتابة كالتوسع بالنقل والرواية وتشقيق الكلام بما يلامس كل معنى والطغيان في العبارة بذلك وما اليه وكل شيء فهو يصلح مادة للكتابة الا في هذا الفن من رسائل الحب

فان مادته القلب والروح وفلسفة العاطفة وترادف وحي الجمال بالمعاني الكثيرة على الشعور الواحد لاوحي اللغة بالالفاظ الكثيرة على المعنى الواحد ولا يتخلص الى فنونه ومعانيه الا من ثمة. فكأن هذا الباب هو من ناحية ليس في طبيعة كتابة المتقدمين، ومن الناحية الاخرى ليس في طبيعة الاجتماع يومئذ لاسباب لامحل لبسطها في هذا الايجاز

ولقد كتب شيخنا وأديبنا الكبير الجاحظ رسالة في العشق والنساء وهي في مجموعة رسائله فكان والله كالذي يلبس ملكة الجمال في هذا العصر مرقعة قذرة... واجتلب من هنا وهناك لمعانيه وشق لها المداخل والمخارج على طريقته واتسع بذلك في العبارة فجاءت أبرد رسائله وأسقطها وكان هذا الامام فيها كالذي يتحسس بيده مجلداً ضخماً من الكتب ثم يذهب يستوحي من جلدته اوصاف ملمس جسم الحبيبة ... التي «كأنها طاقة نرجس او كأنها ياسمينة او كأنها خرطت من ياقوتة». وساق ابن قتيبة في كتابه عيون الاخبار رسالة من منية الى صاحبها قابوس —وهما من اعلام العشق في الادب— ثم جواب قابوس عليها ثم رسالة أخرى منه (١) فكتبت منية إلى حبيبها:

من سنّ سنّةً فليرضَ بأن يُحكم عليه بها، ومن سأل مسألة فليرض من العطية بقدر بذله، لكل عمل ثواب ولكل فعل جزاء، ومن بدأ بالظلم كان اظلم، ومن انتصر فقد انصف والعفوُ أقربُ إلى العقل، وغيرُ مُسيءٍ مَن أعتب. ، مع المَخض تبدو الزُّبدة، عند تناهي البلاء يكون الفرج، كل ذي قَرْحٍ يشتهي دواء قَرْحه، كل مَطمع منتظَر، كل آت قريب. ، الموت أروحُ من الهوى، اليأس أول سبب الراحة، السحر انفذ من الشعر (٢)، دواءُ كل محب حبيبهُ، مع اليوم غد، كما تَدين تدان، استشفِ اللهَ لما بك واسأله المدافعةَ عنك وأجابها قابوس:

من الكرام تكون الرحمة ومن اللئام . . . . تكون القسوة، من كرم أصلُه لان قلبه ورقّ وجههُ، ومن عاقب بالذنوب ترك الفضل ومن ترك الفضل أخطأ الحظ، ومن لم يغفر لم يُغفر له. ، أولى الناس بالرحمة من احتاج اليها فحُرمها، لكل كرب فرج ولكلّ عمل ثواب. ، ملكتِ فاسجحي، قدرتِ فاعفي، ويل للشجي من الخلي الخ الخ

فانظر ويحك ما هذا الكلامُ المتقطعُ المبتذَل المطروقُ المنتزَع كلّه من الامثال والحكم كأن العشق في الحافظة. . . ولم يُورده ابن قتيبه الا في باب النساء والعشق...، ثم ما عسى كان يقول هذان الحبيبان لو أن منية هذه قامت على منبر مسجد الكوفة....

(١) الجزء الرابع من عيون الاخبار صفحة ١٣٦ طبعة دار الكتب المصرية
(٢) الصواب الشعر انفذ من السحر كما هو ظاهر

وصَعِدَ قابوسُ المنبرَ في مسجد البصرة وأراد أن يخطبا الناس لاقامة صلاة الجمعة ؟

على أن بلغاء الكتّاب في كل عصر قد تناولوا في ترسُّلهم فنّ (الإخوانيات) وأجروا فيه رسائلَ المودّة والشوق والصداقة والاستعطاف والعتاب والاعتذار والاستزارة لمجالس اللذات والأنس ، وهذه كلها من أمسّ المعاني بالحب وأقربها شبهاً به وقد أجاد بعضهم في ذلك إجادة بالغةً وأنت تجد رسائلهم منثورة في كتب الأدب (١) ومن أبدعها قول سعيد بن حُميد حبيب فضل الشاعرة : إني صادقتُ منكَ جوهرَ نفسي فانا غير محمود على الانقياد لكَ بغير زمام لأن النفس يقودُ بعضُها بعضاً (٢)

غير أنهم يشترطون في هذا الفن من الرسائل الايجازَ والاختصارَ وأن لا يتجاوزوا به نكتةَ المعنى ليجيء قصداً قريباً ، ولعل ذلك للعلة التي أومأنا اليها من قبل إذ كان هذا على حدود الحب فاذا تَبسَّط فهو الحبُّ بعينه . والكثير في الحب لا يكثر ولا يُمَل أما في الصداقة فالى حَدٍّ وحَسْبُ

وانظر ما كتب بعضهم في قطيعة صديق إذ كتب اليه : لم يدع انقباضُك عن الوفاء وانجذابك مع سوء الرأي في ملاحظة الهجر والاستمرار على الغدر محرّكاً من القلب عليك ولا خاطراً يومي الى حسن الظن بك . هيهات انقضت مدةُ الانخداع لك حين أخلفت عِدَةَ الأماني فيك وما وجدنا ساتراً من تأنيب النصحاء في الميل اليك والتوفُّر عليك الاّ الإقرارَ بطاعة الهوى والاعترافَ بسوء الاختيار

فهذه الرسالة لو أنها صُرفت الى حبيبة وامتدّ بها النَّفَسُ على هذا الاسلوب وبمثل هذا التصرف لتكون صفحتين أو تبلغَ صفحات لرجَفتْ أركانُها الوثيقة وخرجت الى

---

(١) عيون الاخبار لابن قتيبة والظرف والظرفاء والصناعتين والعقد الفريد لابن عبد ربه وصبح الاعشى ويتيمة الدهر والمنظوم والمنثور لابن طيفور وغيرها ، وقد يكتب في هذه المعاني بعض القيان كالرقعة التي املتها جميلة المغنية في استزارة عبد الله بن جعفر ونقلها صاحب الاغاني في ترجمتها في الجزء السابع. وجميلة هذه من أبلغ النساء وأظرفهن وكانت سيدة اهل زمنها في الغناء وكانت تتواضع للاحوص وتعجب به وتغني بشعره

(٢) روى صاحب الاغاني عن ابن ابي المدور قال: كنت عند سعيد بن حميد وكان قد ابتدأ ما بينه وبين فضل الشاعرة يتشعب وقد بلغه ميلها الى بنان وهو بين المصدق والمكذب بذلك فأقبل على صديق لي فقال : أصبحت والله من امر فضل في غرور اخادع نفسي بتكذيب العيان وأمنيها ما قد حيل دونه. والله ان ارسالي اليها بعد ما قد لاح من تغيرها لذل ، وان عدولي عنها وفي امرها شبهة لعجز ، وان تصبري عنها لمن دواعي التلف . ثم أنشد ابياتاً من الشعر

فهذه كانت طريقتهم في الحب يتحدثون به ولا يكتبون فيه ، ويتراسلون به اما في الالسنة واما في رقاع تقوم مقامها في التحدث والتأدية والابلاغ وفي كتب الادب اشياء من هذه وتلك . ولقد كانت كلمات سعيد في تلك الحال تصلح مادة رسالة بليغة في صاحبته الشاعرة الجميلة لولا مابيناه . وكانت رسائل فضل شعراً تنظمه ، وفي رأينا انه لو كان ابتدأ فن الرسائل الغرامية كاتب لابتدأه سعيد هذا

الاستكراه والتكلف وجاءت عيوبها من محاسنها وهلك من طول أولها الى آخرها

ولذلك نحونا في « أوراق الورد » أسلوباً خاصاً تدور به المعاني الحية في ألفاظها بألين مس وألطفه على وضع مستحكم كما يمس الدم الحي عروقه التي يدور فيها

***

ولم نقف على اسم كتاب أفرد لرسائل الحب ولو انهم كتبوا فيها لجمعت كغيرها وأفردت بالتدوين ، بيد أن للقيان الأديبات المتظرفات ضرباً من رسائل الحب يكتبنها بالذهب والمسك والزعفران في بديع الحرير الصيني وضروب الديباج ويجعلن ظروفها طرائف المناديل ويتخذن لها الزنانير الحريرية تربطها ويطيبنها بالمسك والذرائر [1] ولا يكتبن فيها الا « نتف الألفاظ المهلكة ... ومُلَح المكاتبة، وطرائف المعاتبة، وجميل المطالبة وشكيل المداعبة » وقد جمع ابو الطيب الوشاء من أدباء القرن الثالث كتاباً من هذه الرسائل سماه (فرح المهج) والذي يؤخذ من كلامه أن أكثر ما يكتب في ذلك هو الشعر والمثل وابيات العتاب والسلام ونحوها مما هو محفوظ مأثور فليست هذه من رسائل الحب وانما هي من وسائله . . .

وأبعد في الاستحالة من كل ما مر أن يكون في الأدب العربي ديوان من الرسائل الغرامية لكاتب واحد ، فلقد كان مثل ذلك في الشعر كالندرة والفلتة حتى قال الجاحظ :لولا أن العباس ابن الاحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاماً وخاطراً ما قدر أن يكون شعره في مذهب واحد لا يجاوزه لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف ، وما نعلم شاعراً لزم فنا واحداً لزومه فأحسن فيه وأكثر

وللأديبات الجواري رقاع في مكاتبة عشاقهن بيد أنها لا تذهب الا مذهباً واحداً في الكلام فهي في القلم كما هي في اللسان وليس الكتاب الا رسولاً لا رسالة . وقد نقل صاحب الاغاني في ترجمة عَرِيب الحسناء الفاتنة المغنية الشاعرة الكاتبة البليغة المتعشقة التي تكاد تشبه الاديبة الفرنسية الشهيرة المتسمية (جورج ساند) في عشقها واستكلابها . . . . نقل أنها عشقت صديقاً لمولاها يقال له حاتم بن عدي قال فمد عينه اليها « فكاتبها فأجابته» وقال أيضاً انها لما صارت في دار المأمون احتالت حتى أوصلت محمد بن حامد وكانت قد عشقته « وكاتبته » ونقل عن بعضهم قال وسمعت من يحكي أن بلاغتها في كتبها ذكرت لبعض

(١) جمع ذريرة ضرب من الطيب مما كانوا يصنعونه

الكتاب قال فما يمنعها من ذلك وهي بنت جعفر ابن يحيي (١) ثم روى صاحب الاغاني من مُجونها وإفحاشها ، فلو ان لها رسائل حب لاستطرفَ منها هو أو غيره ولكنها كما قدمنا رقاعٌ في مثل الكلام الذي يتراجَعُه كل صاحبين اذا تحدثا أو تشاكيا أو تواعدا وليست من الرسائل المصنوعة المجوّدةِ القائمة في فنها على شاعريّة الجمال وتفلسف الحب وغَزَل الروح وخَصائص المعاني . وتبذل بعض ادباء المتأخرين فكتبوا في الرسائل الغرامية يخاطبون فيها بكاف الخطاب المفتوحة . . . كقول الاديب الشهير ابن سناء الملك من رسالة : وانا والله في امركَ مغلوب ، والسبب اني أنا المحب وأنت المحبوب، ولا اتجلد عليك فاغرّكَ وأخونَ حبك ، ولا اتصنع عليك فاغشك واغم قلبك . . . اعمل ما شئت فانا الصابر ، وافعل كيف شئت فانا الشاكر وقل فلي سمع يعشق قولك، والتفت تر آمالي ترفرف حولك ، وافعل فأنت المعذور ، واستطل فما انا المضرور بل المسرور ، وارجع الى الود الذي بيننا فكل ذنب لك مغفور . وهذا كما ترى كلام غثٌّ سمج وحبٌّ قد يكنسهُ في الطريق الكنّاسون . . .

ولبديع الزمان رسالةٌ مشهورة « الى بعض من عزِل عن ولاية حسنة » اثبتها في ديوان رسائله . ولابن الاثير في كتابهِ « المثل السائر » رقعةٌ قال أنها من عاشق لمشوق وعدّها فيما عدّ من معانيهِ المبتدعة . . . . وكل ذلك عندنا لا قيمة له

ومن المضحكات رسالة كتبها علاء الدين المغربي سماها النيّرين ، قال وهي من المحب الكئيب الى حبيب الحبيب (٢) . . . وقد اوردها ابن أبي حجلة من ادباء القرن الثامن في كتابهِ الذي سماه (حاطب ليل)

فانت ترى ان الادبَ العربي قد انطوى على محجوبةٍ من هذا الفن بقيت في الغيب الى عهدنا هذا ونرجو من فضل الله ان تكون كتبنا الثلاثة قد أظهرتها واستعلنت بها وان تقول العربية اذا تواصَفُوا كتب هـذا الباب في بيان اللغات الاخرى : « هاؤم اقرؤا كتابيه » والحمد لله بما يبلغ رضاه

مصطفى صادق الرافعي

(١) لاريب عندنا ان هذه العبارة مما يتكذبون به لغرض من اغراضهم في الروايه ولذلك قال في سندها وسمعت من يحكي ٠٠٠٠ ويروون ان عريب زارت صاحبها محمد بن حامد مرة فجعل يعاتبها ويقول فعلت كذا وفعلت كذا فقالت يا عاجز . خذ فيما نحن فيه ٠٠٠ فاذا كان غداً اكتب الي بعتابك في طومار (فرخ ورق) حتى اكتب اليك في ثلاثة ودع الفضول فقد قال الشاعر :

دعي عد الذنوب اذا التقينا   تعالي لا اعد ولا تعدي

وهذا ان لم يكن حدث فهو تهويل من صناعة الاخبار على طريقتهم في سوق الحكاية وتنزيل معانيها وتدبير نسقها . وان كان قد حدث فهو تهويل من عريب وتبسط وكانت طويلة اللسان مهذارة كانها تقول لصاحبها ان كان قدر لسانك طوماراً فلساني ثلاثة ......

(٢) عشق هو حبيباً .... وعشق الحبيب حبيباً في مثل سنه وجماله فاتصل النير بالنير . فهذا سبب تسمية الرسالة بالنيرين